الدَّارُ الآخِرَةُ

(٢)

الموتُ عِبرٌ وعِظاتٌ

للشيخ / ندا أبو أحمد

الدَّارُ الآخِرَة

المَوْتُ عِبَرٌ وعِظَاتٌ

تمهيد

إن الحمد لله تعالى نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.....

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ } [سورة آل عمران: ١٠٢]

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} [سورة النساء: ١]

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا} [سورة الأحزاب: ٧٠-٧١]

أما بعد....

فإن أصدق الحديث كتاب الله . تعالى . وخير الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

كفى بالموت واعظاً، وللقلوب مُقرحاً، وللأكباد مُفَتِّتاً، وللعيون مُبْكياً، وللنفوس مُحزناً، وللجماعات مُفرِّقاً، وللذات هادماً، وللأمنيات قاطعاً.

فالموت: يُفرِّق بين الأحباب والأصحاب، ويباعد بين الأقرباء، ويحول بين القرناء، ويهدم اللذات، ويقطع الصلات، ويُيتِّم البنين والبنات، ويُشتِّت الجماعات.

الموت: له هيبة تخضع لها الرءوس، وتنحني لها الظهور، وله رهبة تخشع لها النفوس، وترجف من أجلها القلوب.

الموت: يمضي في طريقه ولا يتوقف ولا يتلفت، لا يستجيب لصرخة ملهوف، ولا لحسرة مفارق، ولا لرغبة راغب، ولا لخوف خائف، ولا للوعة أم، أو شفقة أب، أو حنين طفل.

الموت: قضاء نافذ، وحكم شامل، وأمر حاتم لازم، لا تمنع منه حصانة القلاع، ولا يحول دونه حجاب، ولا تردُّهُ الأبواب، **كما قال العزيز الوهاب:** ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ﴾ [النساء: ٧٨]

الموت: لا يخاف الأباطرة والأكاسرة، ولا يخشى الملوك والقياصرة، ولا يرهب الأمراء والقادة، ولا الزعماء والسادة، يبطش بالعظيم كما يبطش بالحقير، ويُفني الشيخ الكبير كما يُفني الولد الصغير، ويُهلك الكهلَ القوي، كما يُهلك الشابَ الفتي، لا يرحم مسكيناً ولا فقيراً، ولا يترك عزيزاً ولا ذليلاً، ولا يدع باراً تقياً، ولا جباراً عصيًّا، لم ينجُ منه أميرٌ أو وزيرٌ، ولم يسلم منه غنيٌ أو فقيرٌ، وما ترك نبياً ولا وليًّا ولا تقيًّا، ولا يحابي زاهداً أو عابداً، بل شمل المقرَ والجاحد، والصحيحَ والسقيم، والمريض والسليم، بل لم يسلم منه الملائكةُ الكرام، وحملةُ العرش العظام، وجبريل عليه السلام، وآخر مَن يموت ملك الموت.

فالموت: عاقبة كل حي، وختام كل شيء، ونهاية كل موجود سوى الرب المعبود، يستوي فيه المالك والمملوك، والسيد والمسُود، فلا مفر منه ولا محيص عنه، ولا مناص من سلطانه، ولا إفلات من شباكه، فهو سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلاً، فمهما عاش المخلوق فهو إلى الموت صائر،

قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ{٢٦} وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧]

فالكل سيموت غير ذي العزة والجبروت.

المــوت واللحظـات الأخيــرة

يقف الأحبة بجوار مَن ينازع سكرات الموت، ويتفكرون... أهذا فلان المهاب، الذي ملأ الدنيا ضجيجاً وصراخاً، والذي كان منذ قليل يتحرك هنا وهناك؟ هو الآن أصبح جثة هامدة لا حراك لها، قد تقلَّصت الشفتان، وثقل اللسان، وشخصت العينان، وبردت القدمان، وانهدت الأركان

إنه منذ قليل كان الكلُّ يهابه ويخشاه، ويتمنَّون رضاه، أما الآن ينظرون إليه نظره إشفاق.

يُقال له بلسان الحال: أين لسانك الفصيح؟ ما أسكتك؟ أين صوتك الشجي ما أخرسك؟

أين ريحك العطرة ما أنتنك؟ أين حركاتك ما أسكنك؟ أين أموالك الكثيرة ما أفقرك؟

فيا أيها الإنسان ... يا مَن كنت تجري هنا وهناك، وتمشي على الأرض، أو تسبح في الماء، أو تركب الفلك أو تطير في الهواء، ولك من المال والأولاد والزوجة الحسناء؛ سيأتيك في يوم من الأيام ملكٌ مُهاب لا يستأذن لدخول الأبواب، ولا يمنعه حجاب، فأصبحت أيها الإنسان لمالك تاركاً، ولأحبائك مفارقاً، ولكأس المنية شارباً، وعلى الله وارداً، انقطعت الأعمال فلا أنت في حسناتك زائد، ولا إلى دنياك عائد، إنها مصيبة عظمى.

نعم أحبتي في الله... الموت من أعظم المصائب التي تحلّ بالإنسان، وقد سمَّاه الله تعالى في كتابه الكريم: مصيبة، **فقال تعالى:** {فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ} [المائدة:١٠٦]

وذلك لأنه تبديل من حال إلى حال، وانتقال من دار إلى دار، وهو المصيبة العظمى والرزية الكبرى، وأعظم منه الغفلة عنه، والإعراض عن ذكره، وقلة التفكير فيه، وعدم الاستعداد له.

لذا كان السلف الكرام يُذكِّر أحدهم أخاه بالموت وما بعده؛ حتى يتأهَّب لهذه اللحظة ولا يغفل عنها،

فالموت خير واعظ

كما جاء في الحديث الذي أخرجه الطبراني أن الحبيب النبي ﷺ قال:

"كفى بالموت واعظاً، وكفى باليقين غنى"

وكان الفضيل رحمه الله يقول:

"كفى بالله محباً، وبالقرآن مؤنساً، وبالموت واعظاً، وكفى بخشية الله علماً، والاغترار بالله جهلاً"

وجاء في كتاب "التذكرة" للقرطبي (صـ٩٩):

"أنه قيل لبعض الزُهَّاد: ما أبلغ العظات؟ قال: النظر إلى الأموات"

فتعال أنا وأنت نقف على العبر والعظات من كلام السلف الكرام، وكيف كان يعظُ أحدهم أخاه وبما كان يوصيه.

كتب محمد بن يوسف بن معدان الأصبهاني إلى أخيه عبد الرحمن بن يوسف فقال له:

"من محمد بن يوسف إلى عبد الرحمن بن يوسف.. سلام عليك

فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، *أما بعد:*

فإني محذِّرك متحوّلك من دار مُهْلتك إلى دار إقامتك وجزاء أعمالك؛ فتصير في قرار باطن الأرض بعد ظاهرها، فيأتيك منكرٌ ونكير، فيُقعدانك وينتهرانك، فإن يكن الله معك فلا بأس ولا وحشة ولا فاقة، وإن يكن غير ذلك فأعاذني الله وإيَّاك من سوء مصرع، وضيق مضجع، ثم تتبعك صيحةُ الحشر، ونفخ الصُّور، وقيام الجبَّار لفصل قضاء الخلائق، وخلاء الأرض من أهلها، والسماوات من سكانها، فباحت الأسرار، وأُسعرت النار، ووضعت الموازين، وجئ بالنبيين والشهداء، **{وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}** [الزمر: ٧٥]، فكم من مفتضح ومستور، وكم من هالك وناج، وكم من معذبٍ ومرحوم، فيا ليت شعري... ما حالي وحالك يومئذ؟

ففي هذا ما هَدَم اللذات، وسلا عن الشهوات، وقصَّر الأمل؛ فاستيقظ النائمون وحذر الغافلون أعاننا الله وإياك على هذا الخطر العظيم، وأوقع الدنيا والآخرة من قلبي وقلبك موقعهما من قلوب المتقين، فإنما نحن به وله. (حلية الأولياء: ٨/٢٣٦)، (قصر الأمل صـ٦٢-٦٣)، و(إحياء علوم الدين: ٤/٦٦٢)

جاء في كتاب "حلية الأولياء" (٥/٢٩٥) و"إحياء علوم الدين" (٤/٦٦٣) و"قصر الأمل" لابن أبي الدنيا (صـ٦٦-٦٧) عن القعقاع بن عجلان قال: خطب عمر بن عبد العزيز ﷺ، فحمد الله تعالى وأثنى عليه، وقال:

"أيها الناس، إنكم لن تُخْلَقُوا عبثاً، ولن تُتْرَكُوا سدى، وإن لكم معاداً يجمعكم الله للحكم فيكم، والفصل فيما بينكم، فخاب وشقي عبدٌ أخرجه الله من رحمته التي وسعت كلَّ شيء، وجنته التي عرضها السماوات والأرض، وإنما يكون الأمان غداً لمَن خاف الله واتقى، وباع قليلاً بكثير، وفانياً بباق، وشقوة بسعادة.

ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين، وسيخلف بعدكم الباقون؟!

ألا ترون أنكم في كلِّ يوم تُشيِّعون غادياً أو رائحاً إلى الله، قد قضى نحبه وانقطع أمله، فيضعونه في بطن صدع من الأرض غير موسَّد ولا مُمهَّد؟! قد خلع الأسباب وفارق الأحباب، وواجه الحساب؟!

وايم الله... إني لأقول لكم مقالتي هذه، وما أعلم عند أحدٍ منكم من الذنوب أكثر مما أعلم من نفسي، ولكنها سننٌ من الله عادلةٌ، أَمَرَ فيها بطاعته، ونهى فيها عن معصيته، واستغفر الله ووضع كُمَّهُ على وجهه؛ فبكى حتى لثقت[1] لحيته، فما عاد إلى مجلسه حتى مات ﷺ.

---

(1) لثقت: أي ابتلَّت.

وقال عمر بن عبد العزيز ﷺ لأبي حازم:

"أوصني... فقال له أبو حازم: اضَّجِع ثم اجعل الموت عند رأسك، ثم انظر إلى ما تحب أن يكون فيك تلك الساعة فخذ به الآن، وما تكره أن يكون فيك تلك الساعة فدعه الآن، فلعل تلك الساعة قريبة".

وقال أبو حازم أيضاً:

"انظر كل عمل كرهت الموت لأجله فاتركه، ولا يضرك متي متّ"

ودخل يزيد الرقاشي على عمر بن عبد العزيز ﷺ فقال له:

"عظني، فقال يزيد الرقاشي: لست أول خليفة تموت يا أمير المؤمنين، قال: زدني، قال: لم يبقَ أحد من آبائك من لدن آدم إلى بلغت النوبة إليك إلا وقد ذاق الموت، قال: زدني، قال: ليس بين الجنة والنار منزل والله... {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ{١٣} وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ} [الانفطار: ١٣-١٤]، وأنت أبصر ببرك وفجورك، فبكى عمر حتى سقط عن سريره.

وروي عن عمر بن عبد العزيز ﷺ:

"أنه كان في جنازة في مقبرة، فرأى قوماً يهربون من الشمس إلى الظل

فأنشد يقول بعد الصلاة على الرسول ﷺ:

مَن كان حين تصيب الشمس جبهته ... أو الغبار يخاف الشين والشعثا
ويألف الظل كي تبقى بشاشته ... فسوف يسكن يوماً راغماً جدثا
في ظل مقفرة غبراء مظلمة ... يطيل تحت الثرى في غمة اللبثا
تجهزي بجهاز تبلغين به ... يا نفسُ قبل الردى لم تُخْلَقي عَبَثَا

وصدق القائل حيث قال:

ولو أنا إذا متنا تُرِكْنا ... لكان الموت راحة كل حي
ولكن إذا متنا بُعِثْنا ... ونسأل بعده عن كل شيء

روى أبو نعيم الحافظ بإسناد له:

"أن عمر بن عبد العزيز شيَّع مرة جنازة من أهله، ثم أقبل على أصحابه ووعظهم، وذكر الدنيا فذمَّها، وذكر أهلها وتنعمهم فيها وما صاروا إليه بعدها في القبور، ***وكان من كلامه أنه قال:*** إذا مررت بهم فنادهم إن كنت منادياً، وادعهم إن كنت لابد داعياً، ومرّ بعسكرهم وانظر إلى تقارب منازلهم، سل غنيهم ما بقي من غناه؟ وسل فقيرهم ما بقي من فقره؟ وسلهم عن الألسن التي كانوا بها يتكلمون، وعن الأعين التي كانوا إلى اللذات بها ينظرون، وسلهم عن الجلود الرقيقة، والوجوه الحسنة، والأجساد الناعمة، ما صنع بها الديدان تحت الأكفان؛ أكلت اللحمان، وعفَّرت الوجوه، ومحيت المحاسن، وكسرت الفقار، وبانت الأعضاء، ومزقت الأشلاء، أين حجابهم وقبابهم؟

أين خدمهم وعبيدهم؟ وجمعهم وكنوزهم؟ والله ما زودهم فراشاً، ولا وضعوا لهم هناك متكئاً، ولا غرسوا لهم شجراً، ولا أنزلوهم من اللحد قراراً، أليسوا في منازل الخلوات؟ أليس الليل والنهار عليهم سواء؟ أليسوا في مدلهمة ظلماء؟ قد حيل بينهم وبين العمل وفارقوا الأحبة، وكم من ناعم وناعمة أضحوا ووجوههم بالية، وأجسادهم من أعناقهم بائنة، وأوصالهم ممزَّقة، وقد سالت الحدق على الوجنات، وامتلأت الأفواه دماً وصديداً، ودبّت دواب الأرض في أجسادهم؛ ففرقت أعضاءهم، ثم لم يلبثوا إلا يسيراً، حتى عادت العظام رميماً، فقد فارقوا الحدائق، وصاروا بعد السعة إلى المضائق، قد تزوجت نساؤهم، وترددت في الطرق أبناؤهم، وتوزعت القرابات ديارهم وثراهم، فمنهم والله المُوسع له قبره، والغض الناظر فيه، المتنعم بلذته.

يا ساكن القبر غداً ما الذي غرّك في الدنيا ؟ هل تعلم أنك تبقى لها وتبقى لك ؟

أين دارك الفيحاء ونهرك المطّرد ؟ وأين ثمرتك اليَانِعَة؟ وأين رقاق ثيابك ؟ وأين طيبك وبخورك؟

وأين كسوتك لصيفك وشتائك؟ أما والله قد نزل به الأمر، فما يدفع عن نفسه وجلاً، وهو يرشح عرقاً، ويتلمَّظ عطشاً، يتقلَّب في سكرات الموت وغمراته، جاء الأمر من السماء، وجاء غالب القدر والقضاء، هيهات... هيهات يا مغمض الوالد والأخ والولد وغاسله، ويا مكفن الميت وحامله،

ويا مُخَلِّيه في القبر وراجعاً عنه، ليت شعري... كيف على خشونة الثرى، ليت شعري... بأي خديك بدأ البلى، يا مجاور الهلكات، صرت في محلة الموت، ليت شعري... ما الذي يلقاني به ملك الموت عند خروجي من الدنيا؟ وما يأتيني به من رسالة ربي؟ ثم انصرف فما عاش بعد ذلك إلا جمعة ﷺ.

يقول ميمون بن مهران:

"خرجتُ مع عمر بن عبد العزيز إلى المقبرة، فلما نظر إلى القبور بكى، ثم أقبل عليّ فقال: يا أبا أيوب: هذه قبور آبائي كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا في لذتهم وعيشهم، أما تراهم صرعى قد حلت بهم المثلات، واستحكم فيهم البلاء، وأصاب الهوام في أبدانهم مقيلاً – لسان حالهم يقول: كنا عظاماً فصرنا عظاماً، وكنا نقوت فها نحن قوت – ثم بكى حتى غشي عليه، ثم أفاق فقال: انطلق بنا فوالله ما أعلم أحداً أنعم ممّن صار إلى هذه القبور، وقد أمن من عذاب الله ﷻ

ألا تبكي لنفسك؟!:

تنوح وتبكي للأحبة أن مضوا ونفسك لا تبكي وأنت على الأثر

(المدهش: صـ٤٧)

كتب زِرُّ بن حُبَيش إلى عبد الملك بن مروان فقال:

"لا يطمعنك في طول الحياة ما ترى من صحةِ بدنك، ***واذكر قول الأول:***

إذا الرجالُ ولدتْ أولادها وبليت من كِبَر أجسادُها

وجعلتْ أسقامُها تعْتادها تلك زُروعٌ قد دنا حصادُها

فلما قرأ الكتاب بكى؛ حتى بلَّ طرف ثوبه

قال الحارث بن إدريس: قلت لداود الطائي: أوصني فقال: *"عسكر الموت ينتظرونك"*

(صفوة الصفوة: ١٤١/٣)

قال لقمان لابنه: "يا بني أمرٌ لا تدري متي يلقاك، استعد له قبل أن يفجأك"

(العاقبة في ذكر الموت والآخرة صـ ٩٢ لعبد الحق الإشبيلي)

وقال محمد بن الحارث:

"رأيتُ الحسنَ صلَّى على جنازة، فكبَّر عليها أربعاً، ثم اطَّلع في القبر، فقال: يا لها من عظة! ... يا لها من عظة! . ومدَّ صوته بها . لو وافقت قلباً حياً! ثم قال: إن الموت فضح الدنيا، فلم يدع لذي لُبٍّ فرحاً، فرحم الله امرأً أخذ منها قُوتاً مُبلغاً، وهضم[1] الفضل ليوم فقره وحاجته، فكأن ذلك اليوم قد أظلكم"

(الزهد الكبير للبيهقي صـ٢١٧، الزهد للإمام أحمد: ٢٢٦/٢)

(1) هضم: أي: ترك.

وكان الحسن البصري ﷺ يقول أيضاً:

الثَّواءُ ها هنا قليل، وأنتم آخر أمتكم، وأمتكم آخر الأمم، وقد أُسرع بخياركم، فماذا تنظرون إلا المعاينة، فكأنها والله قد كانت، ما بعد نبيكم نبي، ولا بعد كتابكم كتاب، ولا بعد أمتكم أمَّة، تسوقون الناس والساعة تسوقكم، وما ينتظر أولكم إلا أن يلحق آخركم، فيا لها من موعظة لو وافقت من القلوب حياة".

وقال الحسن أيضاً:

"أيها الناس أصبحتم والله في أجل منقوص، وعمل محصي محروس، والموت فوق رءوسكم، والنار بين أيديكم " **(الحسن البصري: صـ٩٢)**

وحضر الحسن جنازة ثم قال:

"أيها الناس اعملوا لمثل هذا اليوم، **{ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ }** **[التوبة:٩٤]**" **(المصدر السابق صـ١٠٠)**

يقول ابن الجوزي ﷺ:

"إخواني... إنكم تغْدون وتروحون في آجال قد غُيِّبت عنكم، فانظروا لخلاصكم قبل انقضاء أعماركم، الوحا... الوحا فالطالب حثيث، تذكروا تلك الصَّرْعة بين الأهل، وهم لا يقدرون على ضر ولا نفع، والله ما بات عاقلٌ قط إلا على فراش حذر، إنما هو دبيب من سُقْم، ثم تؤخذون بالكظم، فإن زلَّت القدم لم ينفع ندم، لا توبة تنال ولا عثرة تُقَال ولا فداء بمال.اهـ

عباد الله... اسعوا في فكاك رقابكم، وأجهدوا أنفسكم في خلاصها قبل أن تزهق، فوالله ما بين أحدكم وبين الندم، والعلم بأنه قد زلَّت به القدم إلا أن يحوم عقاب المنية عليه، ويفوق سهامها إليه، فإذا الندم لا ينفع، وإذا العذر لا يمنع، وإذا النصير لا يدفع، وإذا الشفيع لا يشفع، وإذا الذي فات لا يسترجع، وإذا البائس المحابي به في النجاة لا يطمع، فكأني بك يا أخي وقد صرخ عليك النسوان، وبكى عليك الأهل والإخوان، وفقدك الولدان، ونفخ لفرقتك الجيران، ونادى عليك المنادي: قد مات فلان بن فلان، ثم نقلت عن الأحباب، وحملت إلى أرماس التراب، وأضجعوك في محل ضنك، قصير السمك، مهول منظره كثير وعره، مغشي بالوحشة، عرفته مهول الضريح، مطبق الصفيح، على غير مهاد ولا وداد، ولا مقدمة زاد ولا استعداد".

عن أبي العباس الوليد بن مسلم قال: قال بعض الخلفاء على المنبر:

"اتقوا الله عباد الله ما استطعتم، وكونوا قوماً صِيح بهم فانتبهوا، وعلموا أن الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا، واستعِدُّوا للموت فقد أظلَّكم، وترحَّلوا فقد جُدَّ بكم، وإن غاية تنقصها اللحظة وتهدمها الساعة لجديرة بقصر المدة، وإن غائباً يجد به الجديدان: الليل والنهار لحريٌّ بسرعة الأوبة.

وإن قادماً يحلُّ بالفوز أو الشقوة لمستحقٌ لأفضل العُدَّة، فالتقيُّ عند ربه مَن ناصح نفسه، وقدَّ توبته وغلب شهوته، فإن أجله مستور عنه، وأمله خادعٌ له، والشيطان موكل به يمنِّيه التوبة ليسوِّفها، ويزين إليه المعصية ليرتكبها، حتى تهجم منيتُهُ عليه أغفل ما يكون عنها، وإنه ما بين أحدكم وبين الجنة أو النار إلا الموت أن ينزل به! فيا لها حسرة على كل ذي غفلةٍ، أن يكون عمره عليه حجة، وأن تُرْدِيه أيامه إلى شقوة.

جعلنا الله وإيَّاكم ممَّن لا تُبْطره نعمة، ولا تُقَصِّر به عن طاعة الله معصية، ولا يحلُّ به بعد الموت حسرة، إنه سميع الدعاء، وإنه بيده الخير، وإنه فعَّال لما يشاء.

(قصر الأمل: صـ١١٤، إحياء علوم الدين:٤/٦٦٩)

قال خُلَيد القصَري:

"كلنا قد أيقن بالموت، وما نرى له مستعداً! وكلنا قد أيقن بالجنة، وما نرى لها عاملاً! وكلنا قد أيقن بالنار، وما نرى لها خائفاً! فعلام تعرِّجون؟ وما عسيتم تنتظرون؟ الموت؟ فهو أول واردٍ عليكم من الله بخير أو بشرٍ! يا إخوتاه سيروا إلى ربكم سيرًا جميلاً". **(صفة الصفوة:٣/٢٣١).**

وقد جاء في "الحلية" عن صلة بن أشيم: أنه مرَّ على شباب يلعبون، فقال:

" يا إخوتاه اجتمعوا إليّ، فقال لهم: ما تقولون في قوم أرادوا سفراً؟ فحادوا عنه نهاراً، وناموا عنه ليلاً، ماذا تقولون: أصابوا أم أخطئوا؟ ثم مرّ عليهم في اليوم التالي، ووجدهم يلعبون، فقال لهم مثل ما قال، ثم مرَّ عليهم في اليوم التالي، ووجدهم يلعبون، فقال لهم مثل ما قال، فقال شاب منهم: والله إن صلة يعنينا بهذا الخطاب، ورجعوا عن اللعب إلى طاعة الله".

وجاء في كتاب "الزهد الكبير" للبيهقي صـ٢٣٣ عن إبراهيم بن بشّار قال:

"مررتُ أنا وأبو يوسف الفولي في طريق الشام، فوثب إليه رجل فسلَّم عليه، ثم قال: يا أبا يوسف عظني بموعظة أحفظها عنك. قال: فبكى، ثم قال: اعلم يا أخي أن اختلاف الليل والنهار وممرهما يسرعان في هدم بدنك، وفناء عمرك، وانقضاء أجلك، فينبغي لك يا أخي أن لا تطمئن ولا تأمن؛ حتى تعلم أين مستقرك ومصيرك، وساخط عليك ربك بمعصيتك وغفلتك، أو راضٍ عنك بفضله ورحمته. ابن آدم الضعيف نطفة بالأمس وجيفة غداً، فإن كنت ترضى لنفسك، فسترد وتعلم وتندم في وقت لا ينفعك الندم، قال: فبكى أبو يوسف، وبكى الرجل، وبكيتُ لبكائهما ووقعا مغشياً عليهما".

يقول ابن الجوزي ﷺ:

"أيها الناس، تقوَّوْا بهذه النعم التي أصبحتم فيها، على الهرب من النار الموقدة، التي تطَّلع على الأفئدة، فإنكم في دار الثواء فيها قليل، وأنتم فيها مؤجلون، وخلائف من بعد القرون، الذين استقبلوا من الدنيا زخرفها وزهرتها، فهم كانوا أطول منكم أعماراً وأمدَّ أجساماً وأعظم آثاراً، فجدَّدوا الجبال وجابوا الصخور، ونقبوا في البلاد مؤيَّدين ببطش شديد وأجسام كالعماد، فما لبثت الأيام والليالي أن طوت مدتهم، وعفت آثارهم، وأخوت منازلهم، وأنست ذِكرهم، فما تُحسُّ منهم من أحد ولا تسمع لهم رِكزاً. كانوا بلهو الأمل آمنين كبيات قومٍ غافلين، أو كصباح قوم نادمين، ثم إنكم قد علمتم الذي قد نزل بساحتهم بياناً، فأصبح كثير منهم في ديارهم جاثمين، وأصبح الباقون ينظرون في آثار نقمة، وزوال نعمة، ومساكن خاوية، فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم.

أخي... مَن لك إذا ألمّ الألم، وسكت الصوت، وتمكَّن الندم، ووقع بك الفوت، وأقبل لأخذ الروح ملك الموت، وجاءت جنوده وقيل: من راق، ونزلتَ منزلاً ليس بمسكون، وتعوَّضت بعد الحركات السكون، فيا أسفاً لك كيف تكون، وأهوال القبر لا تطاق، وفُرِّقَ مالُك وسُكِنَتْ الدار، ودار البلاء فما دار إذ دار، وشغلك الوزر عمَّن هجر وزار، ولم ينفعك ندم الرفاق.

دخل بهاء الدين السبكي على الشيخ برهان الدين الإنباسي يعوده، وكان تجاههما نعش، فنظر السبكي إلى النعش، ثم قال للإنباسي:

"يا شيخ برهان الدين أتدري ما يقول النعش؟ فقال: إنه يقول:

انظر إليَّ بعقلك ... أنا المُعَدُّ لحملك

أنا سريرُ المنايا ... كم سار مثلي بمثلك

("المنهل الصافي" ليوسف الأنابكي: (٤١٣/١)

كتب حكيم إلى أخٍ له فقال:

"إن الحزن على الدنيا طويل، والموتَ من الإنسان قريب، وللنقص في كل وقت منه نصيب، وللبلاء في جسمه دبيب. فبادر قبل أن تُنادَى بالرحيل، والسلام " **(قصر الأمل لابن أبي الدنيا: صـ٥٢)**

وكان يزيد الرقاشي ﷺ يقول لنفسه:

"ويحك يا يزيد! مَن ذا يصلِّي عنك بعد الموت؟ مَن ذا يصوم عنك بعد الموت؟ مَن ذا يرضى عنك ربك بعد الموت؟ ثم يقول: يا أيها الناس، ألا تبكون وتنوحون على أنفسكم باقي حياتكم؟ من الموت طالبه، والقبر بيته، والتراب فراشه، والدود أنيسه، وهو من هذا ينتظر الفزع الأكبر، كيف يكون حاله، ثم يبكي حتى يسقط مغشياً عليه". **(التذكرة للقرطبي: صـ٩)**

وجاء في "تهذيب الكمال"(٣٢/٧٦)، وكتاب "المحتضرين" (صـ ١٤٦) عن دُرس القزاز قال:

"لما احتضر يزيد الرقاشي بكى، فقيل له: ما يبكيك . رحمك الله .؟ قال: أبكي على ما يفوتني من قيام الليل وصيام النهار، ثم بكى وقال: مَن يصلي لك يا يزيد، ومن يصوم؟ ومَن يتقرب لك إلى الله بالأعمال بعدك؟ ومَن يتوب لك إليه من الذنوب السالفة؟ ويحكم يا إخوتاه لا تغترنَّ بشبابكم، فكأن قد حلَّ بكم ما حلَّ بي، من عظيم الأمر وشدة كرب الموت، النجاء... النجاء[1]، الحذر... الحذر يا إخوتاه، المبادرة يرحمكم الله".

وكان ابن السماك يقول: "ألا منتبه من رقدته؟ ألا مستيقظ من غفلته؟ ألا مفيق من سكرته؟ ألا خائف من صرعته؟ أقسم بالله لو رأيتَ القيامة تخفق بزلازل أهوالها ،وقد علت النار مشرفة على أهلها، وجيء بالنبيين والشهداء؛ لسرّك أن يكون لك في ذلك الجمع منزلة وزلفى، أَبَعْد الدنيا دار معتمل أم إلى غير الآخرة منتقل؟ كلا. والله لقد صُمَّت الأسماع عن المواعظ، وذهلت القلوب عن المنافع".

قال عقيل بن عمرو في خطبته: "إخواني لابد من الفناء فليت شعري... أين الملتقى؟"

وقال أحد الزُهَّاد: "كونوا من الله على حذر، ومن دنياكم على خطر، ومن الموت على وجل، ولقدوم الآخرة على عجل".

قال إبراهيم بن أدهم لابن بشار:

"يا ابن بشار. مثِّل لبصر قلبك حضور ملك الموت وأعوانه لقبض روحك فانظر كيف تكون؟ ومثِّل له القيامة وأهوالها وأفزاعها، والعرض والحساب والوقوف فانظر كيف تكون؟ ثم خر مغشياً عليه"

قال ثابت البناني: أيُّ عبدٍ أعظم حالاً من عبد يأتيه ملك الموت وحده، ويدخل قبره وحده، ويوقف بين يدي الله وحده، ومع ذلك... ذنوب كثيرة، ونعم من الله عديدة " **(الزهد الكبير للبيهقي بتصرف)**

وكتب رجل إلى أخٍ له:

"أما بعد... فإن الدنيا حُلم، والآخرة يقظة، والمتوسط بينهما الموت، ونحن في أضغاث... والسلام"

(قصر الأمل: صـ٥٢)، (الإحياء:٤/٦٦٢)

وجاء في كتاب "حلية الأولياء" (٨/٢٣٥) أن محمد بن يوسف الأصبهاني كتب إلى بعض إخوانه فقال: "أقرِيء من أقرأتنا منه السلام السلام، وتزوَّد لأُخراك، وتجاف عن دنياك، واستعد للموت، وبادر الفوت، واعلم أن أمامك أهوالاً وأفزاعاً قد أرعبت الأنبياء والرسل... والسلام".

(1) النجاء: النجاة، وهما بمعنى واحد.

وعظ أعرابي ابنه فقال له:

"أي بني، إنه مَن خاف الموت بادر الفوت، ومَن لم يكبح نفسه عن الشهوات أسرعت به التبعات، والجنة والنار أمامك".

جاء في كتاب "صفة الصفوة" (٢١٥/٤)، و"تهذيب الكمال" (١٨/١٥-١٦):

"أن عبد الرحمن بن يزيد – وكان له حظ من دين وعقل- فقال لبعض أصحابه:

"أبا فلان، أخبرني عن حالك التي أنت عليها، أترضاها للموت؟ قال: لا. قال: فهل أزمعت التحويل إلى حال ترضاها للموت؟ قال: لا، والله ما تاقت نفسي إلى ذلك بعد، قال: فهل بعد الموت دارٌ فيها معتمل؟ قال: لا. قال: فهل تأمن أن يأتيك الموت وأنت على حالك هذه؟ قال: لا. قال: ما رأيت مثل هذه حالاً رضي بها، وأقام عليها- أحسبه قال: عاقل".

فاستيقظ أيها الغافل:

ستنقلك المنايا عن ديارك ... ويبدلك الردى داراً بدارك

وتترك ما عنيت به زمانا ... وتنقل من غناك إلى افتقارك

وفي عينيك دود القبر يرعى ... وترعى عينُ غيرك في ديارك

يقول القرطبي ﷺ في كتابه "التذكرة" (صـ١٠):

"فتفكَّر يا مغرور في الموت وسكرته، وصعوبة كأسه ومرراته، فيا للموت من وعد ما أصدقه، ومن حاكم ما أعدله، كفى بالموت مقرحاً للقلوب ومبكياً للعيون، ومفرقاً للجماعات، وهادما للذات، وقاطعاً للأمنيات فهل تفكَّرت يا ابن آدم في يوم مصرعك، وانتقالك من موضعك، وإذا نقلت من سعة إلى ضيق، وخانك الصاحب والرفيق، وهجرك الأخ والصديق، وأخذت من فراشك وغطائك إلى عرر[1] وغطُّوك بعد لين لحافك بتراب ومدر [2]؟! فيا جامع المال، والمجتهد في البنيان، ليس لك والله من مالك إلا الأكفان، بل هي والله للخراب والذهاب وجسمك للتراب والمآب، فأين الذي جمعته من مال؟ هل أنقذك من الأهوال، كلا. بل تركته إلى مَن لا يحمدك، وقدِمت بأوزارك على مَن لا يعذرك".

(1) العرر: القود، والعرر أيضاً: القتال، والشدة في الحرب، فشتَّان بين الحرب والنوم على الفراش.
(2) المدر: الطين أو الحجارة، والمراد: تَذَكَّر يا ابن آدم الموت، واعمل له قبل أن يفجعك.

ويقول القرطبي ﷺ أيضاً في كتابه "التذكرة" (صـ ٩١):

"يا هذا... أين الذي جمعته من الأموال، وأعددته للشدائد والأهوال، لقد أصبحت كفك منه عند الموت خاليةً صفْراً، وبُدِّلت من بعد غناك وعزك ذلاً وفقراً، فكيف أصبحت يا رهين أوزاره؟ ويا مَن سُلِب من أهله وديارِه ؟ ما كان أخفي عليك سبيل الرشاد، وأقل اهتمامك لحمل الزاد إلى سفرك البعيد، وموقفك الصعب الشديد، أوما علمت يا مغرور: أن لا بد من الارتحال، إلى يوم شديد الأهوال، وليس ينفعك ثمَّ قيل ولا قال، بل يعد عليك بين يدي الملك الديان، ما بطشت اليدان، ومشت القدمان، ونطق به اللسان، وعملت الجوارح والأركان، فإن رحمك الله فإلى الجنان، وإن كانت الأخرى فإلى النيران

يا غافلاً عن هذه الأحوال إلى كم هذه الغفلة والتوان!، أتحسب أن الأمر صغير، وتزعم أن الخطب يسير؟ وتظن أن سينفعك حالك إذا آن ارتحالك، أو ينقذك مالك حين توبقك أعمالك، أو يغني عنك ندمك إذا زلت بك قدمك، أو يعطف عليك معشرك حين يضمك محشرك، كلا والله ساء ما تتوهم، ولابد لك أن ستعلم، لا بالكفاف تقنع، ولا من الحرام تشبع، ولا للعظاة تسمع، ولا بالوعيد ترتدع، دأبك أن تتقلب مع الأهواء، وتخبط خبط العشواء، يعجبك التكاثر بما لديك، ولا تذكر ما بين يديك

يا نائماً في غفلة، وفي خبطة يقظان، إلى كم هذه الغفلة والتوان! أتزعم أن ستُتْرك سدى، وأن لا تحاسب غداً؟ أم تحسب أن الموت يقبل الرِّشا؟ أم لا تميز بين الأسد والرَّشا؟ كلا والله لن يدفع عنك الموت مال ولا بنون، ولا ينفع أهل القبور إلا العمل المبرور

فطوبى لمَن سمع ووعى، وحقق ما ادعى، ونهى النفس عن الهوى، وعلم أن الفائز من ارعوى،

{وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى{٣٩} وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى}[النجم:٣٩-٤٠] فانتبه من هذه الرقدة، واجعل العمل الصالح لك عدة، ولا تتمنَّ منازل الأبرار، وأنت مقيم على الأوزار، عامل بعمل الفجار [بل أكثِر من الأعمال الصالحات]، وراقب الله في الخلوات، ولا يَغُرَّنَك الأمل، فتزهد عن العمل.

ثم أنشدَ:

تزوَّد من معاشك للمعاد ... وقم لله واعمل خير زاد
ولا تجمع من الدنيا كثيراً ... فإن المال يجمع للنفاد
أترضى أن تكون رفيق قوم ... لهم زاد وأنت بغير زاد؟

وقال آخر:

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ... ولاقيت بعد الموت مَن قد تزودا
ندمت على أن لا تكون مثله ... وأنت لم ترصد كما كان أرصدا

وعظ بعض الصالحين الناس فقال لهم:

"يا أيها الناس، اعملوا على مهل، وكونوا من الله على وجل، ولا تغتروا بالأمل ونسيان الأجل، ولا تركنوا إلى الدنيا فإنها غدّارة خدّاعة، قد تزخرفت لكم بغرورها، وفتنتكم بأمانيها، وتزيّنت لخطابها، فأصبحت كالعروس المجلية، العيون إليها ناظرة، والقلوب عليها عاكفة، والنفوس لها عاشقة، فكم من عاشق لها قتلت! ومطمئن إليها خذلت!، فانظروا إليها بعين الحقيقة، فإنها دار كثير بوائقها، وذمها خالقها.

جديدها يبلى، وملكها يفنى، وعزيزها يذل، وكثيرها يقل، وُدُّها يموت، وخيرها يفوت، فاستيقظوا رحمكم الله من غفلتكم، وانتبهوا من رقدتكم قبل أن يقال: فلان عليل أو مدنف ثقيل، فهل على الدواء من دليل؟! أَوَهَلْ إلى الطبيب من سبيل ؟! فتدعى لك الأطباء، ولا يرجى لك الشفاء. ثم يقال: فلان أوصى ولماله أحصى.. ثم يقال: قد ثقل لسانه فما يكلم إخوانه، و لا يعرف جيرانه

وعرق عند ذلك جبينك وتتابع أنينك، وثبت يقينك، وطمحت جفونك، وصدقت ظنونك، وتلجلج لسانك، وبكى إخوانك.

وقيل لك: هذا ابنك فلان وهذا أخوك فلان، ومنعت من الكلام فلا تنطق، وختم على لسانك فلا ينطق، ثم حل بك القضاء، وانتزعت نفسك من الأعضاء، ثم عرج بها إلى السماء، فاجتمع عند ذلك إخوانك، وأحضرت أكفانك، فغسّلوك وكفّنوك، فانقطع عوّادك واستراح حسادك، وانصرف أهلك إلى مالك وبقيتَ مرتهناً بأعمالك.

فيا مَن تمتَّع بالدنيا وزينتها ولا تنام عن اللذات عيناه

شَغَلْتَ نفسك فيما لست تدركه تقول لله ماذا حين تلقاه؟

يقول القرطبي رحمه الله:

"مثِّل نفسك يا مغرور وقد حلَّت بك السكرات، ونزل بك الأنين والغمرات، فمِن قائل يقول: إن فلاناً قد أوصى، وماله قد أُحْصى، ومن قائل يقول: إن فلاناً ثقل لسانه، فلا يعرف جيرانه، ولا يكلم إخوانه، فكأني أنظر إليك تسمع الخطاب، ولا تقدر على رد الجواب

فخيِّل لنفسك يا ابن آدم إذا أخذت لفراشك إلى لوح مغسلك، فغسَّلك الغاسل، وأُلبست الأكفان، وأوحش منك الأهل والجيران، وبكت عليك الأصحاب والإخوان، وقال الغاسل: أين زوجة فلان تحالله ؟ وأين اليتامى تركككم أبوكم فما ترونه بعد هذا اليوم أبداً ؟

وأنشدوا:

ألا أيها المغرور ما لك تلعب	**تؤمـل آمـالاً وموتك أقـرب**
وتعلم أن الحرص بحر مبعد	**سفينته الدنيا فـإيـاك تعطب**
وتعلم أن الموت ينقص مسرعاً	**عليك يقينا طعمه ليس يعذب**
كأنك توصي واليتـامى تراهم	**وأمهـم الثكلى تنـوح وتندب**
تغص بحزن ثم تلطم وجهها[1]	**يراها رجال بعد ما هي تحجب**
وأقبل بالأكفان نحوك قاصد	**ويحثي عليك الترب والعين تسكب**

(التذكرة للقرطبي: صـ ٢١)

أيها الغافلون عن الموت... جدوا فقد سبقتم واستعدوا فقد لحقتم، وانظروا بماذا من الهوى عُلقتم، ولا تغفلوا عما له خلقتم، ذهبت الأيام وما أطعتم، وكُتِبت الآثام وما أصغيتم، وكأنكم بالصادقين قد وصلوا، وانقطعتم، أهذا التوبيخ لغيركم؟ أما قد سمعتم؟

اسمعوا عظة الزمان إن كنتم تسمعون، وتأملوا تقلب الأحوال إن كنتم تبصرون.

لقد خوفنا الموت بمَن أخذ منا، ونعلم هجومه علينا وقد أمنا.

ذكر القرطبي عن محمد بن القرشي أنه قال: سمعت شيخنا يقول:

"أيها الناس. إني لكم ناصح، وعليكم شفيق، فاعملوا في ظلمة الليل لظلمة القبور، وصوموا في الحر قبل يوم النشور، وحجُّوا يحط عنكم عظائم الأمور، وتصدقوا مخافة يوم عسير".

يا ناسي الموت... كم أسمعك الموت وعيدك، فلم تنتبه حتى قطع وريدك، ونقض منزلك وهد مشيبك، ومزق مالك وفرق عبيدك، وأخلي دارك وملأ بيدك، أما رأيت قرينك؟ أما أبصرت فقيدك؟ أين الوالدون وما ولدوا، أين الجبارون وأين ما قصدوا، أين أرباب المعاصي؟ على ماذا وردوا، أما جنوا ثمرات ما جنوا وحصدوا، أما قدموا على أعمالهم في مآلهم، ووَفَدُوا، أما خَلَوا في ظلمات القبور؟ بكوا والله وانفردوا، أما ذلوا وقلّوا بعد إن عتوا ومردوا، أما طلبوا زادا يكفي في طريقهم ففقدوا، أما حلّ الموتُ فحلّ عقد ما عقدوا، عاينوا والله كل ما قدموا ووجدوا، فمنهم أقوام شقوا وأقوام سعدوا.

أيها الغافل... كم سكن مثلك في هذا الدار، فحام الموت حول حماهم ودار! ثم ناهضهم وسلب الجار، فمن أنذر قبل هجومه فما جار، يا هذا! العمر عمر قليل وقد مضى أكثره بالتعليل، وأنت تعرض البقية للتأويل، وقد آن الأوان أن يرحل النزيل". **(التذكرة في الاستعداد ليوم الآخرة صـ٩١)**

أيها الغافل... كأنك بالموت، وقد اختطفك اختطاف البرق، ولم تقدر على دفعه عنك بملك الغرب، والشرق، وتأسفت الأسف الشديد **{وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ}**

(1) تنبيه: لطم الوجه منهيٌّ عنه شرعاً.

وصدق القائل لما قال:

إن للموت سكرة فارْتَقبها	**لا يُدَاويك إذا أتتك طبيبُ**
ثم تثوي حتى تصير رهيناً	**ثم تأتيك دعوةٌ فتجيبُ**
بأمورِ العبادِ أنت عليم	**فاعْمَلنَّ جاهداً لها يا أريبُ**
وتذكر يوماً تحاسبُ فيه	**إن مَن يذكر المماتَ ينيبُ**
ليس في ساعةٍ من الدهر إلا	**للمنايا عليك فيها رقيبُ**
كل يوم ترميكَ منها بسهم	**إن يُخطئ يوماً فسوف يصيبُ**

يقول ابن الجوزي رحمه الله:

"كم يومٍ غابت شمسه وقلبك غائب! وكم ظلام أُسبل ستره وأنت في عجائب! وكم أُسْبغت عليك نعمة وأنت للمعاصي تُواثِبُ! وكم صحيفة قد ملأها بالذنوب الكاتبُ! وكم يُنذرك سَلب رفيقك وأنت لاعبُ! يا مَن يأمن الإقامةَ قد زُمَّت الركائبُ، أفق من سكرتك قبل حسرتك على المعايبُ، وتذكَّر نزول حُفرتك وهجران الأقاربُ، وانهض عن بساط الرقاد وقل: أنا تائبُ، وبادر تحصيل الفضائل قبل فوت المطالبُ، فالسائق حثيث والحادي مُجدٌّ والموت طالبُ

كلنا في غفلة	**والموت يغدو ويروحُ**
نُح على نفسك	**يا مسكين إن كنت تنوحُ**

اعلم يا ابن آدم... أنك لدنياك مفارق، ولسكرات الموت ذائق، وللقبر ساكن، وبين يدي ربك واقف، وعن أعمالك وأقوالك مسئول، فأعدّ للسؤال جواباً، وللجواب صواباً، واعلم أن الحساب دقيق، والناقد بصير، وهو على كل شيء قدير.

يا غافلاً عن نفسه!... أمرك عجيب، يا قتيل الهوى! داؤك غريب، يا طويل الأمل! ستدعى فتجيب، وهذا عن قريب، وكلٌّ آت قريب، هلا تذكرت لحدك، وكيف تبيت وحدك، ويباشر الثرى خدَّك، وتقتسم الديدان جلدك، ويضحك المحب بعدك، ناسياً عنه بُعدك؟! والأهل مذ وجدوا المال ما وجدوا فقدك، إلى متى وحتَّى متى تترك رشدك؟! أما تحسن أن تحسن قصدك؟! الأمر جد مجد، فلازم جدك" ("التبصرة": ٢/٢٠٦)

أيها الغافل عن الموت... بادر قبل الفوت.

يقول شميط بن عجلان ﷺ كما في "صفة الصفوة" (٣/٣٤٧)، و"قصر الأمل" لابن أبي الدنيا (صـ٦٢):

"أيها المغترُّ بطول صحته، أما رأيت ميِّتاً قط من غير سقم؟ أيها المغترُّ بطول المهلة أما رأيت مأخوذاً قط من غير عُدَّة؟ إنك لو فكرت في طول عمرك لنسيت ما قد تقدم من لذاتك.

أبالصحة تغترون؟ أم بطول العافية تمرحون؟ أم للموت تأمنون؟ أم على ملك الموت تجترئون؟!

إن ملك الموت إذا جاء لم يمنعه منك ثروة مالك ولا كثرة احتشادك.

أما علمت أن ساعة الموت ذاتُ كربٍ وغُصص وندامة على التفريط؟ ثم قال: رحم الله عبداً عمل لساعة الموت، رحم الله عبداً عمل لما بعد الموت. رحم الله عبداً نظر لنفسه قبل نزول الموت". أهـ

وجاء في كتاب "الزهد الكبير" للبيهقي عن روح بن مدرك أنه قال وهو على المنبر:

"الآن قبل أن تسقم فتضنى، وتهرم فتبلى، ثم تموت فتنسى، ثم تقبر فتبلى، ثم تبعث فتحيى، ثم تحضر فتدعى، ثم توقف فتجزى بما قدمت وأمضيت، وأذهبت فأفنيت من موبقات سيئاتك، ومتلفات شهواتك، فالآن... الآن وأنتم سالمون".

أما آن للنائم أن يستيقظ من نومه؟ وحان للغافل أن ينتبه من غفلته قبل هجوم الموت بمرارة كأسه؟ وقبل سكون حركاته، وخمود أنفاسه، ورحلته إلى قبره، ومقامه بن أدماسه.

وأخيراً أقول كما قال الحسن بن عبد العزيز الجروبي:

"مَن لم يردعه القرآن والموت، فلو تناطحت الجبال بين يديه لم يرتدع".

صرخة:

يا مَن يُدعى إلى نجاته فلا يجيب، يا مَن قد رضي أن يخسر ويخيب، إن أمرك طريف وحالك عجيب، أذكر في زمان راحتك ساعة الوَجِيب{وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ} [ق:٤١]

ويحك... إن الحق حاضر ما يغيب، تُحْصى عليك أعمال الطلوع وأفعال المغيب، ضاعت الرياضة في غير نجيب، سيماك تدلُّ وما يخفي المريب، اسمع: لابد لغربان الفراق من نعيب، أنساكِنُ الغفلة ولغيرنا نعيب؟ يا من سِلَعُهُ كلها معيب، اذكر يوم الفزع والتأنيب

{وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ}

لابد . والله . من فراق العيش الرطيب، والتحاف البلى مكان الطيب، واعجباً للذَّات بعد هذا كيف تطيب، ويحك... أحضر قلبك لوعظ الخطيب {وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ}

تذكَّر مَن قد أصيب، كيف نزل بهم يوم عصيب، وانتبه... لأحظِّ الحظ والنصيب، واحترز... فعليك شهيد ورقيب، إذا حلَّ الموت حلَّ التركيب، وتقلب مُقَلُ القلوب في قلب التقليب.

ستخرج . والله . من هذا الوادي الرحيب، ولا ينفعك البكاء ولا النحيب، لا بد من يوم يتحير فيه الشبان والشيب، ويذهل فيه الطفل للهول ويشيب، يا مَن عمله كله رديء فليته قد شيب

{وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ}

كيف بك إذا أحضرت في حال كئيب، وعليك ذنوب أكثر من رمل كثيب، والمُهيمِن الطالب والعظيم الحسيب، فحينئذٍ يبتعد عنك الأهل والنسيب، النوح أولى بك يا مغرور من التشبيب، أتؤمن أم عندك تكذيب، أم تراك تصبر على التعذيب، كأنك بدمع العين ومائها قد أذيب، اقْبَل نصحي وأقْبِل على التربية والتهذيب {وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ}

يا مطالباً بأعماله، يا مسئولاً عن أفعاله، يا مكتوباً عليه جميع أُقواله، يا مناقشاً على كل أحواله، نسيانك لهذا أمر عجيب، أتسكن إلى العافية، وتساكن العيشة الصافية، وتظن أَيْمان الغرور واقية، لابد من سهم مصيب {وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ}

لو أحسنت الخلاص أحسنت، لو آمنت بالعرض لتجملت وتزيَّنت، يا مَن قد أنعجمت عليه الأمور لو سألت لتبيَّنت، ويحك! أحضر قلبك إنما أنت في الدنيا غريب {وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ}

إلى متى أنت مع أغراضك؟ متى ينقضي زمان إعراضك؟ يا زمن البلى متى زمن إنهاضك؟ تالله لقد كع من أمراضك الطبيب {وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ}

يا مَن عمله بالنفاق مغشوش، تتزيَّن للناس كما يزين المنقوش، إنما يُنْظَرُ إلى الباطن لا إلى النقوش، إذا هممت بالمعاصي فاذكر يوم النُّعُوش، وكيف تحمل إلى قبر بالجَنْدَل مفروش، مَن لك إذا جُمِعَ الإنس والجن والوحوش، وقام العاصي من قبره حيران، مدهوش، وهو مغلول مخشوش، وجاء الجبَّار العظيم، فحينئذٍ يتضاءل المتكبر، وتذل الرءوس، ويومئذ يبصر الأكمه ويسمع الأطروش، وينصب الصراط... فكم واقع وكم مخدوش! ليس بجادة يقطعها قاصلٌ ولا مرعوش، ولا تقبل في ذلك اليوم فدية ولا تؤخذ الأروش، والمتعوس حينئذٍ ليس بمنعوش، وينقلب أهل النار في الأقذار والريح كالخشوش، لحافهم جمر وكذلك الفروش {وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ} [القارعة:٥]

يا مَن أركان إخلاصه واهية، أما لك من عقلك ناهية؟ إلى متى نفسك ساهية، معجبة بالدنيا زاهية؟ مفاخرة للإخوان مضاهية، النار بين يديك وتكفي داهية وما أدراك ماهية {نَارٌ حَامِيَةٌ}

تقوم من قبرك ضعيف الجأش، وقد جأر قلبك في بدنك وجاش، ووابل الدمع يسبق الرَّشاش، أتدري ما يلاقي العطاش الظامئة؟ فاتقوا النار {نَارٌ حَامِيَةٌ}، أين مَن عتا وتجبَّر، أين مَن علا وتكبَّر، أين مَن للدول بالظلم دبَّر، ماذا أعد للحضرة السامية، فاتقوا النار {نَارٌ حَامِيَةٌ}

لو رأيت العاصي وقد شقي، يصيح في الموقف: "واقلقي"، اشتد عطشه وما سقي، وشرر النار إليه يرتقي، فمَن يتقي تلك الرامية {نَارٌ حَامِيَةٌ} لو رأيته يقاسي حرها، ويعاني ضرها، جحيمها وقرَّها، والله لا يدفع اليوم شرَّها، إلا عين هامية، فاتقوا النار {نَارٌ حَامِيَةٌ} يفر الولد من أبيه، والأخ من أخيه، وكل قريب من ذويه، أسمعت يا مَن معاصيه نامية، احذر ناراً {نَارٌ حَامِيَةٌ}

لهذا كان المتَّقون يقلقون ويخافون ربهم ويشفقون، وكم جرت من عيون القوم عيون! كانت جفونهم دائمة دامية، من خوفهم من {نَارٌ حَامِيَةٌ}

أجارنا الله بكرمه منها، ووفقنا لما ينجي عنها، وجعلنا بفضله ممَّن قام بما يُؤمَر، واجتنب ما عنه ينهى، فكم له من نعم سامية! فاتقوا النار {نَارٌ حَامِيَةٌ}

يقول ابن الجوزي ﷺ كما في "التبصرة" (٢/٢٧٥):

"كأنك بالعمر قد انقرض، وهَجم عليك المرض، وفات كلُّ مراد وغرض، وإذا بالتلف قد عَرض أخَّاذا **{لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا}**[ق:٢٢]

شخَص البصرُ وسكن الصَّوْت، ولم يمكن التداركُ للفوْت، ونزل بك مَلك الموت؛ فسامَت الروَّح وحاذى: **{لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا}** عالجت أشدَّ الشدائد، فيا عجباً مما تُكابد، كأنك قد سُقيت سُمَّ الأساود فقطَّع أفْلاذاً **{لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا}**

بلغت الروحُ إلى التراقي، ولم تعرف مَن الساقي، ولم تدرِ عند الرحيل ما تلاقي، عِياذاً بالله عياذاً **{لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا}**، ثم درجوك إلى الكفن، وحملوك إلى بيت العفَن، على العيب القبيح والأفَن، وإذا الحبيب من التراب قد حَفَن، وصرت في القبر جُذاذاً **{لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا}** وتسرَّبت عنك الأقارب تسري، تقدُّ في مالك وتُقْرِى، وغايةُ أمرهم أن تجري دموعهم رذاذاً **{لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا}**، قفلوا الأقفال وبضَّعوا البضاعة، ونَسوا ذكرك يا حبيبهم بعد ساعة، وبقيت هناك إلى أن تقوم الساعة، لا تجد ملاذاً ولا معاذاً **{لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا}**

ثم قمت من قبرك فقيراً، لا تملك من المال نَقِيراً، أصبحت بالذنوب عَقِيراً، فلو قدَّمت من الخير صار ملجأ وملاذاً**{لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا}**

وقال في موضعٍ آخر:

يا مطلقاً نفسه فيما يشتهي ويريد، أذكر عند خطواتك المُبدئ المعيد، وخف قبح ما جرى فالملك يرى، والملك شهيد **{ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ}** [ق:١٦].

هلاَّ استحييتَ ممَّن يَراك إذا رَكِبت من هواك ما نهاك، ستبكي . والله . عيناك مما جَنَت يداك،

أمَا تعلم أنه بالمرصاد، فقل لي: أين تَحيد؟**{ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ}** [ق:١٦].

كم من ظالمٍ تعدَّى وجار! فما راعى الأهل ولا الجار، بينا هو عقد الإصرار، حلّ به الموت، فحل من حلته الأزرار {فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ}[الحشر:٢]

ما صحبه سوى الكفن إلى بيت البلى والعفن، لو رأيته وقد حلَّت به المحن، وشين ذلك الوجه الحسن، فلا تسأل كيف صار {فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ}

سال في اللحد صديده، وبلي في القبر جديده، وهجره نسيبه ووديده، وتفرَّق حشمه وعبيده والأنصار {فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ}

أين مجالسه العالية؟ أين عيشته الصافية؟ أين لذاته الخالية؟ كم تسْفِي على قبره سافية، ذهبت العين وأُخْفِيت الآثار {فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ}

تقطَّعت به جميع الأسباب، وهجره القرناء والأتراب، وصار فراشه الجندل والتراب، وربما فتح له في اللحد باب النار {فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ}

خلا والله بما كان صنع، واحتوشه الندم وما نفع، وتمنَّى الخلاص وهيهات... قد وقع، وخلاه الخليل المصافي وانقطع، واشتغل الأهل بما كان جمع، وتملك الضدُّ[1] المال والدار {فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ}

نادم بلا شك ولا خفا، باكٍ على ما زلَّ وهفا، يودُّ أن صافي اللذات ما صفا، وعلم أنه كان يبني على شفا جرف هار {فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ}

قارنه عمله من ساعة الحَيْن، فهو يتمنَّى الفرار، وهيهات... أين؟ ويقول: يا ليت بيني وبينك بُعْد المشرقين، فهو على فراش الوحدة وحده، والعمل ثاني اثنين، ولكن لا في الغار

{فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ}

وهذه إن كانت حالة مَن غدا، فلكلٍّ منكم مثلها غداً، فانتبهوا من رقادكم قبل الردى {أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى }[القيامة:٣٦] إنما هي جنة أو نار {فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ}

(التبصرة:١/٢٧٢).

(1) الضد: الخَصِيمُ.

أيها الغافلون... أين أحبابكم الذين سلفوا؟ أين أترابكم الذين رحلوا وانصرفوا؟ أين أرباب الأموال وما خلفوا؟ ندموا على التفريط، يا ليتهم عرفوا هول مقام يشيب منه الوليد {وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ}[ق:١٩]، يا مَن جسده حي وقلبه ميت؛ ستعاين عند الحسرات ما لا تريد {وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ}

كم أزعج المنون نفوسًا من ديارها! وكم أباد البِلى أجسادًا منعمة لم يدارها! وكم نقل إلى الحفر أرواحًا مذارها! وكم أذلّ في التراب خدودًا بعد مزارها! فابْكِ على نفسك قبل بكاء لا يفيد {وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ}

أما علمت أنك ترحل في كل يومٍ مرحلة؟ أما علمت أنه يُحصَى عليك من الأعمال خردلة؟

وكم من مؤمل خاله في الحساب ما أمله؟ مَرَّ القضاء وعاجله، ولم تُبَلِّغه الآمال إلى ما يريد {وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ}

يا معرضاً عن المولى إلى متى الإعراض؟ وقد ولَّى شبابك في طلب الأعراض.

أما علمت . ويحك . أن عمرك في انقراض، وقواك كل ساعة في انتقاض،

. ويحك . تَزَوّدْ، فالسفر والله بعيد {وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ}

يا مَن كسته المعاصي ظلمة الحجاب، يا مَن أغلق الهوى في وجهه الأبوابَ، نُحْ على نفسك فربما ينفع التعديد {وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ}

أما علِمت أن الموت لك بالمرصاد؟ أما صاد غيرك وإياك سيصطاد؟ أما بلغك ما فعل بسائر القُصَّاد؟ أما حذَّرَكَ غفلتَك عنه في كل موطنٍ ووادٍ؟ أما سمعت قول الملك المجيد {وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ}

أين مَن بنى وشاد؟ واستطال وتآمر على العباد؟ ألم يسمعوا الإنذار بالموت والتهديد؟ {وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ}

فيا مَن ينظر العبر بعينيه، ويسمع المواعظ بأذنيه، وكلماته معدودة عليه، ونذير الموت قد دنا إليه بالإسراع والتأكيد {وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ}

أيها الغافل... ربح القوم وخسرت، وساروا إلى الحبيب وما سرت، وقاموا بالأوامر وضيعت ما به أُمِرت، وسلموا من رق الهوى واغتررت فأُسِرت، فالدنيا تخدمهم والسعادة تقدمهم حين يحشرون

{وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ} **[المطففين:٢٦]**

لقد شُوقتم إلى الفضائل فما اشتقتم، وزجرتم عن الرذائل وأنتم في سكر الهوى ما أفقتم، فلو حاسبتم أنفسكم وحقَّقتم، علمتم أنكم بغير وثيق توثقتم، فاطلبوا الخلاص من أسر الهوى فقد جد الطالبون

{وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ}

أيقظنا الله وإياكم لمصالحنا، وعصمنا من ذنوبنا وقبائحنا، واستعمل في طاعته جميع جوارحنا، ولا جعلنا ممّن يرضى بدون {وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ}

(التبصرة لابن الجوزي: ١/٢٨٦)

ليس الغريب

للإمام علي زين العابدين بن الحسين

لَـيْسَ الغَريـبُ غَريـبَ الـشَّأمِ والـيَمَنِ ... إنَّ الغَريـبَ غَريـبُ اللَّحـدِ والكَفَـنِ
إنَّ الغَرِيـبَ لَـهُ حَـقٌّ لِغُرْبَتِـهِ ... علـى الْمُقيمـينَ فـي الأَوطـانِ والـسَّكَنِ
لا تنهـرنَّ غريبـاً حـال غربتـه ... الـدهر ينهـره بـالذل والمحـن
سَـفَري بَعيـدٌ وَزادي لَـنْ يُبَلِّغَنـي ... وَقُـوَّتي ضَـعُفَتْ والمـوتُ يَطلُبُنـي
وَلـي بَقايـا ذُنـوبٍ لَـسْتُ أَعْلَمُهـا ... الله يَعْلَمُهـا فـي الـسِّرِ والعَلَـنِ
مَـا أَحْلَـمَ اللهَ عَنـي حَيْـثُ أَمْهَلَنـي ... وقَـدْ تَمادَيْـتُ فـي ذَنْبـي ويَـسْتُرُنِي
تَمُـرُّ ساعـاتُ أَيّامـي بِـلا نَـدَمٍ ... ولا بُكـاءٍ وَلا خَـوْفٍ ولا حـزَنِ
أَنـا الَّـذِي أُغْلِـقُ الأَبْـوابَ مُجْتَهِـداً ... عَلـى المعاصِـي وَعَـيْنُ اللهِ تَنْظُرُنـي
يَـا زَلَّـةً كُتِبَـتْ فـي غَفْلَـةٍ ذَهَبَـتْ ... يَـا حَـسْرَةً بَقِيَـتْ فـي القَلـبِ تُحْرِقُنـي
دَعْنـي أَنُـوحُ عَلَـى نَفْـسي وَأَنْدِبُـها ... وَأَقْطَـعُ الـدَّهْرَ بِالتَّذْكِيـرِ وَالحَـزَنِ
دَعْ عَنْـكَ عَـذْلِي يـا مَـن كـان يَعْـذلني ... لَـو كُنْـت تَعْلَـم مَـا بِـي كُنْـتَ تَعْـذرني
دَعْنِـي أسِـحُّ دموعـاً لا انْقِطَـاع لَهَـا ... فَهَـلْ عَـسَى عَبْـرَةٌ مِنْهَـا تُخَلِّـصُنِي
وقَـدْ تَجَمَّـعَ حَـوْلِي مَـن يَنُـوحُ وَمَـن ... يَبْكِـي عَلَـيَّ وَيَنْعَـانِي وَيَنْـدِبْني
كَـأَنَّني بَـينَ تلـك الأَهـلِ مُنطَرِحـاً ... عَلـى الفِـراشِ وَأَيْـديهِمْ تُقَلِّبُنـي
وَقـد أَتَـوْا بِطَبيـبٍ كَـيْ يُعالِجَنـي ... وَلَـمْ أَرَ الطِّـبَّ هـذا اليـومَ يَنْفَعُنـي
واشَـتد نَزْعِـي وَصَـار المَـوتُ يَجْـذِبُها ... مِـن كُـلِّ عِـرْقٍ بِـلا رِفـقٍ ولا هَـوَنِ
واسـتَخْرَجَ الـرُّوحَ مِنـي فـي تَغَرْغُرِهـا ... وصـارَ رِيقـي مَريـراً حِـينَ غَرْغَرَنـي
وَغَمَّـضُونـي وَراحَ الكُـلُّ وانْـصَرَفوا ... بَعْـدَ الإيـاسِ وَجَـدُّوا فـي شِـرَا الكَفَـنِ
وَقـامَ مَـنْ كـانَ حِـبَّ النّـاسِ فـي عَجَـلٍ ... نَحْـوَ المُغَـسِّلِ يَأْتينـي يُغَـسِّلُنـي
وَقـالَ يـا قَـوْمِ نَبْغِـي غاسِـلاً حَـذِقاً ... حُـراً أَرِيبـاً لَبِيبـاً عَارِفـاً فَطِـنِ
فَجاءَنـي رَجُـلٌ مِـنْهُمْ فَجَرَّدَنـي ... مِـنَ الثِّيـابِ وَأَعْرَانـي وأَفْرَدَنـي
وَأَوْدَعـوني عَلـى الأَلْـواحِ مُنْطَرِحـاً ... وَصـارَ فَـوْقي خَرِيـرُ المـاءِ يَنْظِفُنـي
وَأَسْـكَبَ المـاءَ مِـنْ فَـوقي وَغَـسَّلَني ... غُـسْلاً ثَلاثـاً وَنَـادَى القَـوْمَ بِـالكَفَنِ
وَأَلْبَـسُوني ثِيابـاً لا كِمـامَ لهـا ... وَصـارَ زَادي حَنُـوطِي حيـنَ حَنَّطَنـي

وأَخْرَجونـــي مِـــنَ الدُّنيـــا فَواأَسَـــفاً ... عَلـــى رَحِيـــلٍ بِـــلا زادٍ يُبَلِّغُنـــي
وَحَمَّلونـــي علـــى الأَكتـــافِ أَربَعَـــةٌ ... مِـــنَ الرِّجـــالِ وَخَلْفِـــي مَـــنْ يُـــشَيِّعُني
وَقَـــدَّموني إِلـــى المحـــرابِ وانـــصَرَفوا ... خَلْـــفَ الإِمـــامِ فَـــصَلَّى ثـــمّ وَدَّعَنـــي
صَـــلَّوْا عَلَـــيَّ صَـــلاةً لا رُكـــوعَ لهـــا ... ولا سُجـــودَ لَعَـــلَّ اللـــهَ يَرْحَمُنـــي
وَأَنْزَلونـــي إِلـــى قَبـــري علـــى مَهَـــلٍ ... وَقَدَّمُـــوا واحِـــداً مِنهـــم يُلَحِّدُنـــي
وَكَـــشَّفَ الثَّـــوْبَ عَـــن وَجْهـــي لِيَنْظُرَنـــي ... وَأَسْـــكَبَ الـــدَّمْعَ مِـــنْ عَيْنيـــهِ أَغْرَقَنـــي
فَقـــامَ مُحتَرِمـــاً بِـــالعَزمِ مُـــشْتَمِلاً ... وَصَـــفَّفَ اللَّـــبِنَ مِـــنْ فَـــوْقِي وفـــارَقَني
وقَـــالَ هُلُّـــوا عليـــه التُّـــرْبَ واغْتَنِمـــوا ... حُـــسْنَ الثَّـــوابِ مِـــنَ الـــرَّحمنِ ذِي المِـــنَنِ
فـــي ظُلْمَـــةِ القبـــرِ لا أُمٌّ هنـــاك ولا ... أَبٌ شَفيـــــقٌ ولا أَخٌ يُؤَنِّـــــسُني
فَرِيـــدٌ .. وَحِيـــدُ القبـــرِ، يـــا أَسَفـــاً ... عَلـــى الفِـــراقِ بِـــلا عَمَـــلٍ يُزَوِّدُنـــي
وَهـــالَني صُـــورَةً فـــي العـــينِ إِذْ نَظَـــرَتْ ... مِـــنْ هَـــوْلِ مَطْلَـــعِ مـــا قَـــدْ كـــان أَدهَـــشَني
مِـــنْ مُنكَـــرٍ ونكيـــرٍ مـــا أَقـــولُ لهـــم ... قَـــدْ هـــالَني أَمْـــرُهُمْ جِـــداً فَـــأَفْزَعَني
وَأَقْعَدونـــي وَجَـــدُّوا فـــي سُؤالِهـــمُ ... مَـــالِي سِـــوَاكَ إِلهـــي مَـــنْ يُخَلِّـــصُنِي
فَـــامْنُنْ عَلَـــيَّ بِعَفْـــوٍ مِنـــك يـــا أَمَلـــي ... فَإِنَّنـــي مُوثَـــقٌ بِالـــذَّنْبِ مُرْتَهـــنِ
تَقاســمَ الأَهْـلُ مـالي بعـدما انْـصَرَفُوا ... وَصَـــارَ وِزْرِي عَلـــى ظَهْـــرِي فَـــأَثْقَلَني
واســـتَبْدَلَتْ زَوجَتـــي بَعْـــلاً لهـــا بَـــدَلي ... وَحَكَّمَتْـــهُ فِـــي الأَمْـــوَالِ والـــسَّكَنِ
وَصَـــيَّرَتْ وَلَـــدي عَبْـــداً لِيَخْدُمَهـــا ... وَصَـــارَ مَـــالي لهـــم حـــلاً بِـــلا ثَمَـــنِ
فَـــلا تَغُرَّنَّـــكَ الدُّنْيـــا وَزِينَتُهـــا ... وانْظُـــرْ إِلـــى فِعْلِهـــا فـــي الأَهْـــلِ والـــوَطَنِ
وانْظُـرْ إِلـى مَـنْ حَـوَى الـدُّنْيا بِأَجْمَعِهـا ... هَـلْ رَاحَ مِنْهـا بِغَيْـرِ الحَـنْطِ والكَفَـنِ
خُـذِ القَنَاعَـةَ مِـنْ دُنْيَـاك وارْضَ بِهـا ... لَـوْ لـم يَكُـنْ لَـكَ إِلا رَاحَـةُ البَـدَنِ
يَـا زَارِعَ الخَيْـرِ تحـصُدْ بَعْـدَهُ ثَمَـراً ... يَـا زَارِعَ الـشَّرِّ مَوْقُـوفٌ عَلَـى الـوَهَنِ
يَـا نَفْسُ كُفِّـي عَـنِ العِـصْيانِ واكْتَـسِبِي ... فِعْـلاً جميـلاً لَعَـلَّ اللهَ يَرحَمُنـي
يَـا نَفْسُ وَيْحَـكِ تُـوبي واعمَلِـي حَـسَناً ... عَـسى تُجـازَيْنَ بَعْـدَ المـوتِ بِالحَـسَنِ
ثـمَّ الـصلاةُ علـى الْمُختـارِ سَيِّدِنـا ... مَـا وَضّـأَ البَـرْقَ فـي شَّـامٍ وفـي يَمَـنِ
والحمـــدُ للهِ مُمْـــسِينَا وَمُـــصْبِحِنَا ... بِـــالخَيْرِ والعَفْـــوْ والإِحْـــسانِ وَالمِـــنَنِ

نـــداء

أيَـا مَـن يَـدّعي الفَهْـم ... إلِـى كَـمْ يَـا أخَـا الـوَهْمْ
تُعَبـِّي الــذنبَ والــذّم ... وتُخطِـي الخطـأ الجَـمّ
أمَـا بَــانَ لــكَ العَيــبْ ... أمَــا أنــذرك الــشَّيب
وَمَـا فـي نُـصْحِه رَيبْ ... وَلا سَـمعُك قَـد صَـمّ
أمَـا نَـادَى بِـكَ المَـوتْ ... أمَــا أسْـمَعَكَ الـصَّوْتْ
أمَـا تخشَى مِنَ الفَوْت ... فَتحتَـــاط وَتهْـــتَمّ
فَكَـم تـسْدَرُ فِـي الـسَّهو ... وَتختَــالُ مِــن الزَهْــوْ
وتنــصَّبُ إلــى اللهْــوْ ... كَـأن المَّـوْتَ مَـا عَـمّ
وَحَتّـــامَ تَجَـــافِيكْ ... وَابْطَـــاءُ تَلافِـــيكْ[1]
طِبَــاعاً جَمَّعــتْ فِيــكْ ... عُيوبًـا شـمْلُها انـضّمّ
إذا أسْــخَطْتَ مَــولاكْ ... فَمَــا تَقلَــقُ مِــن ذاكْ
وإن أخفَــقَ مَــسْعَاك ... تَلّظّيــتَ مِــن الهَــمّ
وإن لاح لــكَ الــنقشْ ... مِــنَ الأصْــفَرِ تهْــتَشْ
وإن مَـرّ بِـكَ الـنعْشْ ... تَغَـــامَمْتَ ولا غَـــمّ
تُعَاصِـي النّاصِـحَ البَـرّ ... وتَعْتَــاصُ[2] وتَــزْوَرّ[3]
وتنقَـــادَ لِمَـــن غَـــرّ ... ومَـن مَـانَ ومَـن نـمّ[4]
وَتسعَى فِي هَوى النّفْسْ ... وتحْتَــالُ علــى الفَلَــسْ
وَتنـسَى ظُلمَـةَ الـرّمْس ... وَلا تــذكُرُ مَــا ثَــمّ[5]
ولَــوْ لاحَظَــك الحَــظّ ... لمَا طَـاحَ بِكَ اللحَظْ[6]
ولا كُنــتَ إذا الــوَعْظْ ... جَــلا الأحــزَانَ تَغَــمْ
سَـتُذري الـدمَّ لا الـدَمْعْ ... إذا عَاينْــتَ لا جَمْــعْ
يَقِـي فِـي عَرصَـةِ الجَمْعْ ... وَلا خَـــالَ ولا عَـــمْ
كَــأنِّي بِــكَ تَــنحَطْ ... إلَــى اللّحْــدِ وتــنغَطْ
وَقَـد أسـلَمَكَ الرَّهْـطْ ... إلَـى أضيَقَ مِـن سَـمّ[7]
هُنَــاكَ الجِـسمُ مَمــدُودْ ... لِيــسْتأكِلَهُ الــدَّودْ

(1) تجافيك : تباعدك . تلافيك : تداركك.
(2) أي: تصعب، يقال: اعتاص عليه الأمر: إذ أشكل.
(3) تَزْوَرّ: أي: تميل وتعدل وتنثني عن قبول ما يقال لك من الحق.
(4) مان: أي:كذب، نمّ: سعى بالنميمة.
(5) الرمس : القبر.
(6) لاحظك : أبصرك ونظرك ورعاك . طاح بك : أهلكك . اللحظ : النظر بمؤخرة العين تيهًا.
(7) الرهط : الأهل والقوم . السَم : ثقب الإبرة ، يريد به ضيق القبر.

إلِــى أنْ ينخَــرَ العُــودْ ... وَيُمْسِي العَظمُ قد رَمّ[1]
وَمِــنْ بَعــدُ فَلابُــدّ ... مِـنَ العـرْضِ إذا أعْتُـدّ
صِــرَاطٌ جِــسْرُهُ مُــد ... عَلَــى النّــارِ لِمَـن أمّ
فَكَـم مِـنْ مُرشِـدٍ ضَـلّ ... وَمِــنْ ذي عِــزّةٍ ذلّ
وَكَــم مِــنْ عَــالِمٍ زلّ ... وَقَالَ الخَطبُ قَد طَمّ[2]
فَبَــادِر أيُّــهَا الغُمْــر ... لِمَــا يَحْلُــو بِــهِ المُــرّ
فَقَد كَـادَ يَهِي العُمْرْ ... وَمَــا أقلَعْــتَ عَــنْ ذمّ
وَلا تَـركَنْ إلِـى الـدَّهْرْ ... وإنْ لانَ وإن سَــــرّ
فَتلقَــى كمَــنْ اغتَــرّ ... بِــأفْعَى تَنفُــثُ الــسّمّ
وّخَفِّـضْ مِـنْ تَراقِيـكْ ... فَــإن المَــوتَ لاقِيــكْ
وَسَــارٍ فــي تَراقيــك ... وَمَــا ينكُــلُ إنْ هَــمّ
وَجَــانِبْ صَــعَرَ الخَــدّ ... إذا سَــاعَدَكَ الجَــدّ
وَزُمّ اللفْــظَ إن نَــدّ ... فَمَــا أسْــعَدَ مَــنْ زَمّ[3]
وَنَفِّسْ عَنْ أخِي البَثّ ... وَصَــــدّقهُ إذا نــــثّ
وَرُمّ العَمَــلَ الــرّثّ ... فَقَــد أفْلَــحَ مَــنْ رَم ّ
وَرِشْ مَنْ ريشُه انحَصّ ... بِمَــا عَــمّ ومَــا خَــصّ
ولا تَـأسَ عَلـى الـنقصْ ... ولا تحْـرِصْ عَلــى اللّــمّ
وَعَــادِ الخُلُــقَ الــرَّذلْ ... وَعَــوِّد كفَّــكَ البَــذلْ
وَلا تَــسْتَمِع العَــذلْ ... وَنَزِّههَــا عَــن الــضَّمّ[4]
وَزَوِّدْ نَفْــسَكَ الخَيْــرْ ... وَدَعْ مَا يُعْقِبُ الضَّيرْ[5]
وَهَيِّــيء مَركَــبَ الــسَّيْرْ ... وَخَـف مِـنْ لُجّـةِ اليَّم[6]
بِـذا أُوصـيتَ يَـا صَـاحْ ... وَقَـد بُحْـتُ كَمَـنْ بَـاحْ
فطــــويَى لِفَتَــــىً راحْ ... بِـذكر المَـوْتِ يَهْـتَمْ [7]

(1) رم : بلى.
(2) الغُمْر :الجاهل الذي لم يُجرب الأمور.
(3) زم: قيد – نث: نشر الكلام.
(4) الضم : كناية عن البخل وجمع المال.
(5) الضير: ضاره – يضيره – ضيراً، إذا ضرَّه.
(6) مركب السير : عبارة عن طريق الآخرة . لـجّة اليم : معظم ماء البحر، عبارة عن مناقشة الحساب.
(7) وردت بقوله: بِآدَابِيَ يَأتَم (يأتم : يقتدي).

وبعد...

فهذا آخر ما تيسَّر جمعه في هذه الرسالة

نسأل الله أن يكتب لها القبول، وأن يتقبَّلها منَّا بقبول حسن، كما أسأله ﷻ أن ينفع بها مؤلفها وقارئها، ومَن أعان على إخراجها ونشرها.....إنه ولي ذلك والقادر عليه.

هذا وما كان فيها من صواب فمن الله وحده، وما كان من سهو أو خطأ أو نسيان فمنِّي ومن الشيطان، والله ورسوله منه براء، وهذا بشأن أي عمل بشري يعتريه الخطأ والصواب، فإن كان صواباً فادعُ لي بالقبول والتوفيق، وإن كان ثم خطأ فاستغفر لي

وإن وجدت العيب فسد الخللا جلّ مَن لا عيب فيه وعلا

فاللهم اجعل عملي كله صالحاً ولوجهك خالصاً، ولا تجعل لأحد فيه نصيب

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلّى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

هذا والله تعالى أعلى وأعلم .....

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك